

القصيدة المعاصرة

- قراءة في خلفيات العودة إلى التراث -

الدكتور كامل بلحاج

جامعة سيدي بلعباس

هناك أسئلة كثيرة ترد على ألسنة بعض قراء القصيدة المعاصرة ومتلقيها مفادها لماذا كل هذا الاهتمام بالتراث الشعبي ؟ ولماذا عاد الشاعر في عصر العلم والتكنولوجيا إلى المعتقدات والطقوس الشعبية الساذجة ، وما هي الأهداف الحقيقية وراء هذا الاهتمام ؟ أليس اللجوء إلى الأساطير من الوسائل التي يصطنعها البعض في هذا العصر تجنباً لاتخاذ موقف إزاء المسائل السياسية والاجتماعية الجوهرية ؟ ثم لماذا هذا التمسك بالقوميات والنبش في الفكر الشعبي القديم ؟.

هذه بعض التساؤلات الجوهرية التي سنحاول الإجابة عنها في هذا المقال. لكن قبل ذلك لابد من الإشارة إلى دواعي وأسباب عودة الشاعر المعاصر إلى التراث الشعبي قيمه وحديثه ، لأن الحديث عن هذه الدواعي سيوضح الكثير من الأمور المتعلقة بانتشار ظاهرة الثقافة الشعبية أو الأسطورية في شعرنا العربي المعاصر كصورة من صور الارتباط بالموروث القومي والإنساني.

ويمكن تصنيف هذه الدواعي إلى نفسية وحضارية وأخرى ثقافية وفتية ، علما أن هذا التصنيف ليس تصنيفاً فاصلاً ، لأن هذه الدواعي على درجة من التشابك والترايط ما لم يسمح بالفصل بينها ووضع الحدود الدقيقة لكل منها. فهي تتبادل مواقع التأثير والتأثر بحيث قد يقوى أحدها على الآخر أو العكس ، ومن ثم فسوف تظل كل محاولة لتحديد هذه الدواعي وتصنيفها تصنيفاً نهائياً محاولة غير حاسمة وغير موضوعية في بعض الأحيان.

شهدت البشرية مع مطلع القرن الماضي تغيرات جذرية كادت أن تعصف بكل منجزات الحضارات القديمة. فمع مغادرة العصور الوسطى في أوروبا والدخول في العصور الحديثة ، أخذت المفاهيم القديمة عن الإنسان والحضارة والعالم تتلاشى تدريجياً لتحل

محلها مفاهيم جديد عن إنسان آلي وعالم ميكانيكي لا حياة لها، وقد قادت فلسفة "ديكارت" وفيزياء "نيوتن" وفلكيات "كوبرنيكوس" وتلامذته إلى عكس ما كان يتوقعه العالم، فبعد أن كان سعي العلم يتجه نحو اكتساب المعرفة وفهم نوااميس الطبيعة من أجل العيش معها في تكامل و وئام، تحول سعيه إلى محاولة للسيطرة عليها و الإخلال بنظامها وقوانينها المستقرة منذ القديم.

وقد ترافق ذلك مع نظام جديد للقيم المعرفية والأخلاقية تم تعميمه على العالم بأسره تقريبا، فحل محل القيم القديمة التي تنطلق من الإحساس بالوحدة مع الكون، وتداخل الظواهر الروحية والمادية. أضف إلى ذلك ما أحدثته الحرب العالمية الأولى والثانية من خراب ودمار، وما سفكت من أرواح ودماء ظلت ماثلة في النفوس والأذهان، ((لقد كان لهذين الحادثين (الحربين العالميتين) أثر بالغ في إشعار الإنسانية بالمعاني الكبرى التي تولف نسيج وجودها، وفي وضعها بصورة كلية أمام أكبر مصدر من مصادر قلقها، وأعني به الفناء الشامل الذي ينتظر الشعوب بأسرها، مما ولد إحساسا بالمأساة استغرق شعور كل فرد من أفرادها))¹، وأيضا الحرب الذرية والنووية التي تهدد مستقبل البشرية كلها بالفناء.

لقد بلغ من هول هذه الأحداث وانقهار القيم وتغيرها، أن أحس شعراء هذا العصر وأدباؤه بالمأساة والقلق بسبب جفاف الحياة وتعقيداتها، وفي يؤكد صلاح عبد الصبور أن هذا العالم ((ما زال مليئا بالمرض والشر والفقر والألم، والبشرية مازالت مريضة بالقسوة والإسفاف والتفاهة))². وهو ما أدى ببعض الأدباء من ذوي الإحساس المرهف إلى الانتحار، واختيار الموت، فشاركوا بذلك أبطال قصائدهم وقصصهم مصيرهم "كسيفان زفايج"، و"مايا كوفسكي" و"إرنست همنغواي" وتشيزاره بافيرة. ولم يتمالك بعضهم الآخر "كانطوندي سانت" و"زوبيري" الذي صاح بأعلى صوته ((إنني أكره العصر الذي أنا فيه))³، وهو أيضا ما دفع البير كامو إلى القول بأن ((هناك حدا يجب أن لا نتخطاه))⁴ وإلا ستكون الكارثة التي لم يشهدها البشر في حياتهم.

1. عبد الرحمن بدوي: دراسات في الفلسفة الوجودية، دار الثقافة، لبنان ط3 1973 ص14

2. صلاح عبد الصبور: حياتي في الشعر ص 95

3. محمود السمر: متهمون أدباء وفنانون ص 12

4. البير كامو: الإنسان المتمرّد، ترجمة نهاد رضا، منشورات عويدات بيروت ط2 1980 ص18

ولعل كتابه (أسطورة سيزيف) الذي يناقش فيه قضية الانتحار في عالم اختفت منه كل القيم حتى الفكرية منها ، هو خير ما يمثل أزمة الإنسانية المعاصرة، هذه الأزمة التي أصابت البشرية جمعاء ملقبة بظلالها أكثر فأكثر على شعراء ما بعد الحرب العالمية الثانية الذين نظروا حولهم فوجدوا أن القيم التي نشؤوا عليها قد تغيرت بقيم أخرى ليست حقيقية ، وأنهم عاشوا في خداع وزيف، وأن هذه الحضارة على الرغم مما وصلت إليه من تطور علمي، فهي لم تورثهم إلا الأحزان والضيق والإحساس الملح بتفاهة الحياة وقذارتها وخلوها من أي معنى.

لقد ضاع كل شيء و(أشرف الوقت على الانتهاء في حدائق الغرب، ومن الآن فصاعدا سوف يحكم على الفنان فقط من خلال جرس وحدته ونوعية يأسه)).¹ وربما كانت من إثباتات في (الأرض الخراب) التي تنعى مظاهر الحياة المعاصرة من أقوى الشعراء إحساساً بهذا الانتهاء واليأس.

مدينة الوهم

تحت الضباب الأسمر في فجر شتائي،

أتمناب جمهور على (جسر لندن)، غفير،

ما كنت أحسب أن الموت قد طوى مثل هذا الجمع الغفير.

حسرات، قصيدة متقطعة، كانوا ينفثون،²

إن هذا الشعور بالانفصام بين الشاعر والعالم المعاصر من حوله، ليس هو الوجه الوحيد لاغترابه، فهناك وجهان آخران من وجوه الاغتراب واليأس أولهما (الاغتراب الكوني) أي العزلة المطلقة عن كل ما هو قائم في هذا الكون، مما يدفع الشاعر إلى تخطي مشكلة الإنسان في مواجهة المجهول. وثانيهما (الاغتراب الاجتماعي) الناجم عن الشعور بعدم إمكان التضام والعيش مع الآخرين. وهو شعور قديم ظهر عند الرمزيين من أمثال "مالارميه" (1842 - 1898) لكنه أخذ شكلاً حاداً في هذا العصر، ومن ممثليه أيضاً الإنجليزي "دهلورنس" والفرنسي "مارسل بروس" والألماني "ريلكه".

1 . حسام الخطيب: معاشرات في تطور الأدب الأوربي ص 336.

2 . ديزيرة سقال: الأرض الخراب والشعر العربي الحديث ص 120.

وعلى العموم فقد كان هذا الاغتراب بوجهيه عاملا أساسيا في إحياء الحسن التراثي لدى شعراء هذا العصر، حتى أنه أصبح علامة مميزة للأدب المعاصر شعره ونثره. وقد اتخذ هذا الحسن كما يتضح عند تنس إليوت - أكبر ممثل للاتجاه الاغترابي في هذا العصر - شكلا إنسانيا شاملا ، بمعنى أنه حاول التعمق في البعد التراثي والتاريخي للتجربة الإنسانية ككل، لعل ذلك يوفر له سبل الخلاص من زيف هذه الحضارة و أمراضها بالهروب الفكري والوجداني إلى حيث الفطرة و السذاجة و صفاء الروح ، ويمده بالقوة الأخلاقية التي تساعد على إعادة الاتصال بالانتماء الإنساني. فكان الدين والتاريخ والأسطورة - فيما يبدو - طريق الخلاص عنده.

ولم يشذ الشاعر العربي المعاصر بحكم تأثره بثقافة العصر وظروفه عن هذا الإحساس الذي أصبح فيه العالم يموج بالمفاسد والخطايا على حد تصوير صلاح عبد الصبور و خليل حاوي . فكان هذا الشعور يدفعه إلى الإبحار في الذاكرة الجماعية والحلم بعالم آخر بين أحضان تراثها الفلكلوري حيث ((يعيش سذاجة الأحلام الأسطورية وعقويتها ، وحيث ذلك الحس النشيط الذي يكتشف في إحساسه بأشد الأشياء عادية جوانب خفية جديدة ، وحيث يجد نزوع الحس الشعري إلى الالتحام بالعالم استجابات روحية عميقة ، وحيث التجربة ترفض أن تسجن نفسها داخل نظام مغلق من القواعد والمعاني المجردة))¹. وحيث يعمل النزوع الأسطوري على التخفيف من سلطان النزعة العقلانية التي سيطرت على الإنسان وأفقته معناه . في هذا السياق يعبر صلاح عبد الصبور عن هذا التحول الذي آل إليه البشر:

الناس في بلادي جارحون كالصقور
غناؤهم كرجفة الشتاء في ذرابة المطر
وضحكهم يتر كاللهيب في الحطب
خطاهمو تريد أن تسوخ في التراب
ويقتلون ، يسرقون ، يشربون ، يجشأون
لكنهم بشر 2

1 . علي غشري زايد: استدعاء الشخصيات التراثية في الشعر العربي المعاصر ص 42.

2 . صلاح عبد الصبور: الديوان ص 29.

وفي قصيدة أخرى :

يا شيخني بسام الدين

قل لي .. ((أين الإنسان ... الإنسان))¹

إذا كان من الطبيعي في ظل هذه الأحداث والتحويلات الكبرى أن يبحر الشاعر العربي المعاصر في التراث الشعبي القديم حيث البساطة والفطرة والعلاقات الإنسانية المفعمة بالمحبة والإخاء ، والأحاسيس الطاهرة التي لم تفسدها الطبائع والأهواء ، وحيث اللغة البكر بطاقتها السحرية وقدراتها على التصوير والتأثير.

لذا نرى الشاعر المعاصر يتمنى أن تكون لفته تلك الصفات أو الطاقات التي كانت تمتلكها كلمات الشاعر البدائي حيث ((لم تبلغ القوة التصويرية للغة الشعر ما بلغت في تلك العهود ولم يبلغ سلطانها على النفوس ما بلغ لتلك العصور))². لأن الشعر إذا خلا من هذه الطاقات - في اعتقاد بعض الشعراء كأدونيس مثلاً - فقد تأثره وزوجه ((هاللة والسحر والشعر ظواهر مترادفة في حياة الإنسان ومتساندة))³. وقد ذهب هذا التمني بصالح عبد الصبور إلى بيع كل ما اكتسبه في حياته المتحضرة من خبرة ومهارة مقابل يوم واحد من تلك الحياة الساذجة البكر ، حيث الأشياء ما تزال على طبيعتها وعفويتها :

يا من يدل خطواتي على طريق الدمعة البريئة

يا من يدل خطواتي على طريقة الضحكة البريئة

لك السلام

لك السلام

أعطيك ما أعطتني الدنيا من التجريب والمهارة

لقاء يوم واحد من البكارة

لا ، ليس غير " أنت " من يعيدني للفراس القديم

دون ثمن

1 . صالح عبد الصبور: الديوان ص 268.

2 . محمد غنيمي هلال: النقد الأدبي الحديث ص 364

3 . عز الدين إسماعيل: الشعر العربي المعاصر قضاياها وظواهره الفنية والمعنوية ص 173 .

يبدو أن الحنين إلى عوالم الأسطورة يزداد كلما ازدادت الحياة المعاصرة قسوة وتعقيدا . فالشاعر الآن يعيش أزمة كبرى في محيط اجتماعي لا يمد له سوى بعلاقات فائرة ومتدهورة بين الإنسان وأخيه الإنسان، مما أدى إلى تعكير القيم وتحطيم الوجود البشري. ومن ثم كانت عودته إلى هذه العوالم أو بالأحرى إلى التراث الشعبي - الذي تفيض فيه العلاقات بالحرارة والصدق، وحيث المشاعر الغنية بالحب والصفاء - ملجأ دافئا يقيه تلك البرودة الفاترة في المشاعر والعلاقات، وسبيلا يساعده على تصوير همومه وآلامه.

تلك الهموم والآلام التي تعجز الأشكال الكلاسيكية العادية عن تصويرها، ((إننا نرجع إلى الأساطير ونعاود الرجوع إليها على أمل أن تستطیع هذه الوسائل ذات مرة أن تكون أصبغ تمثيلا لهمومنا الخاصة، وربما أكثر تهديئة لها (...)) ولعلنا إذا ما وضعنا ثقتنا في الأساطير فإنها ستعبر بنا إلى ما وراء أسئلتنا الذهنية الباردة، و المنطق العقلي الذي يسود حياتنا الداخلية، وما علينا إلا أن نتبعها في هدوء². لكن هل استطاعت هذه الأساطير حقا أن تعبر بنا إلى ما وراء أسئلتنا؟ وهل كانت فعلا هي الوسيلة الأصوب والأكثر تمثيلا لهمومنا ومشاكلنا³.

إن الإجابة عن هذا السؤال بنعم أو لا، قد يفسد الإجابة نفسها ويذهب بقيمتها الحقيقية، لأن صلة الشعر بالأسطورة قديمة تعود إلى العصور الأولى من حياة الشعر سواء عند العرب أو غيرهم من الأمم، فكلاهما يتكئ على الآخر ويعتمد عليه، وكلاهما يهدف إلى التطهير الروحي والفكري للإنسان، لكونهما عنصرين متجذرين في السيكولوجية الفردية والجمعية.

من هنا يمكن القول بأن فكرة الرجوع إلى الأساطير، لا تعني أن الشعر كان يعيش بعيدا عن الأسطورة، وإنما تعني أن الاهتمام بالأسطورة هو الاهتمام بالشعر أيضا لأن النزوع الشعري العظيم لا يقوم إلا على أساس أسطوري، كما أن النزوع الأسطوري لا يقوم إلا على أساس شعري، لأن كلاهما يقبع في أعماق النفس متخفيا خلف آليات التفكير

1 . صلاح عبد الصبور: الديوان ص 247 . 248

2 . عشري زايد: استنعاء الشخصيات التراثية في الشعر العربي المعاصر ص 44.

العلمي، فإذا ما ظهر أحدهما أخذ بيد الآخر. وربما هذا ما كان يقصد إليه الكاتبان "ريتشارد تشيز" و"مارك شورر" عندما ذكرا بأن الشعر أساس لا غنى للأسطورة عنه، وأن الأسطورة أساس لا غنى للشعر عنه¹.

يتضح مما سبق أن الاهتمام بالتراث الشعبي كان مخرجاً نفسياً من قلق وحيرة أصبحت تساور الإنسان المعاصر نتيجة الأزمات المادية والروحية، وقد ارتبط هذه الاهتمام بتلك الرؤى التي رأت في هذا التراث نوعاً من الإسقاط النفسي الذي يهدف. بتمثيل أشكاله وطقوسه. إلى إعادة بناء المتناقضات في تجربة الإنسان، وما يناوش وعيه من ضغوط متعددة. ومن ثم كانت الرموز التراثية، الأسطورية منها بالخصوص، على حد ما جاء به إريك فروم عبارة عن ((رسالة مرسلة من النفس إلى النفس، لغة خفية تمكننا من معالجة الوقائع لداخلية كما لو كانت وقائع خارجية))². ولذا فلا عجب أن يهتم الشعراء بها كل هذا الاهتمام، فهي إحدى أدوات التنفيس العميقة الغور في النفس الإنسانية لتحقيق الأفكار المترابكة في اللاشعور والرغبات التي رسبها الواقع بعمومه وتعقيداته.

ولعل أكبر تنفيس حققه التراث الشعبي للشاعر العربي المعاصر أنه حطم حاجس الموت أمامه للعبور إلى البعث والتجدد. فكانت أساطير الموت والانبعاث أول أسلوب تراثي يواجه به الشاعر المعاصر مشكلة التخلف والموت المائل أمامه في كل شيء (الإنسان، القيم، الأفكار، الحضارة، المجتمع...)، فهو يرفض الاستسلام والهزيمة، الأمر الذي دفعه إلى إبداع عالم أسطوري تتغلب فيه الحياة على الموت، لأن الفكر الأسطوري - على حد تعبير "إرنست كاسيرر" - "بأجمعه يعد إنكاراً عنيداً لظاهرة الموت، وأقوى تأكيداً للحياة عرفته الحضارة الإنسانية"³. وذكر "كارل غوستاف يونغ" أن فكرة الانبعاث توجد في كل مكان وزمان، وهي تعد من أوهام الطفولة التي تراود الإنسان في مراحل مختلفة من حياته⁴، يسبب تمسكه الشديد بالحياة وحيه للخلود.

1. كذلك راثنين: الأسطورة، ترجمة: جعفر صادق الخليفي ص 97.

2. ويلبريسن سكوت وآخرون: خمسة مداخل إلى النقد الأدبي، ترجمة: عناد غزوات إسماعيل، دار الرشيد للنشر العراق 1981 ص 268.

3. ينظر: زيتا عومش: أسطورة الموت والانبعاث في الشعر العربي الحديث ص 40.

4. ينظر: زيتا عومش: أسطورة الموت والانبعاث في الشعر العربي الحديث ص 40.

ويبدو أن هذه الأوهام قد راودت العديد من الشعراء المعاصرين كآدونيس والسياب
وصلاح عبد الصبور وخليل حاوي الذين عانوا قضية الموت على مستويات عدة : الفردي
والقومي والحضاري، فראوا أن الإنسان مغامرة مصيرية، يحتضن الموت لكن عليه أن يحترق
كما احترق الفينيقي ليكون رماده خصبا جديداً للعالم.

